

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(١) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتضاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم وبلغوا إليكم السلم﴾ أي: المسألة والمواعدة ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسألة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه منافي للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويمشئ عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

فرتين أمر بتركهم وحشم [على] ذلك، إحداهما^(٢) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا يقاتل قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أمر من الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فأقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً».

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين﴾ أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنونكم﴾ أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم وبلغوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً^(٣) المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم «فلا تتخذوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها فخذوهم واقتلوهم وخذوهم وخذوهم﴾ أي: في أي: وقت، وأي: محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا فأئذ الله: «فما لكم في المنافقين فيتين﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدمون.

بعضكم رقاب بعض». فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إلا خطأ﴾ فإن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجرىء على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرّاً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كقارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن قوله: ﴿تحرير رقبة﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص مَنْ استحقت منافع له لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مسلمة إلى أهله﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعضو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فإن كان المقتول﴾ من قوم عدو لكم﴾ أي: من كفار حريين ﴿وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمايتهم وأموالهم.

﴿وإن كان﴾ المقتول ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فمَنْ لم يجد﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فصيام شهرين متتابعين﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿توبة من الله﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التبعيد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، تكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفاسد [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقاتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتترعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

(٢) في ب: عليهم.

(١) زيادة من هامش: ب.

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ بأمر تعال عباداه المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتببوا ويتببوا في جميع أمورهم المشتبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبيت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبيت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبيت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشور

عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزاقه، بخلاف المستعجل للأمر في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له حكمها،

فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال

غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم،

وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فهذا عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى

إليكم السلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾

أي: فلا يحملنكم العرض الضاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي

فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له

إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها

ما أعد الله لمن نهي نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن

في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعال مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام:

﴿كذلك كنتم من قبل فمّن الله عليكم﴾ أي: فكما هذاكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضدّاً يذافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل

الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية

والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما

يسمع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار،

وعكسه، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكانه فيها بحسب ما فيه

من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه. ومَنْ له بصيرة متورة يرى بها

كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده

رأى: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه وربوبيته، وعزته، وحكمته،

وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،

فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق النار

الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات،

وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل

وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى

كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا

لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والحزني المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعياًذاً بالله من كل سبب يبعد عن رحمة.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكيثر

والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول

الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب

في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في

«المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها

فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة،

ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد

قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة

مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها

والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة

الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص،

فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب

ومانه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية،

المؤمنين ﴿٩٧﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ﴾ أي: ممن لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وَكَلَّأَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّأْنَا حَكَمًا وَعِلْمًا﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصراري خير من المجوسي، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر. والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا مَصِيرًا﴾ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا غَفُورًا﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويجدُّ به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربه، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس. وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّأَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لثقله وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتيين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

فإذا كان مَنْ خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتيين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتيين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كل ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عبادهم ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّأَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيمًا ﴿أَي: لَا يَسْتَوِي مَنْ جَاهَدَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ لِلْجِهَادِ وَلَمْ يَقَاتِلْ أَعْدَاءَ اللَّهِ، فَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْخُرُوجِ لِلْجِهَادِ، وَالتَّرْغِيبُ فِي ذَلِكَ، وَالتَّرْهيبُ مِنَ التَّكَاثُلِ وَالْقُعُودِ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ عَذْرٍ.

وأما أهل الضرر كالمرضى والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فمن كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد غير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في



عجز عن المأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾. وقال في عموم الأوامر: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فاتوا منه ما استطعتم». ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: ﴿لا يستطيعون حيلة﴾. وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة ونحوهما يحتاج إلى سفر من الاستطاعة.

﴿١٠٠﴾ «ومن يساجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً». هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده، أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغماً في الأرض وسعة، فالمراغم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا.

وذلك أن كثيراً من الناس يتوهم أن في الهجرة شيئاً بعد الألفة، وقرأ بعد الغنى، وذلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات القاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصد أن يفتن عن دينه، خصوصاً إن كان مستضعفاً.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله وجهاد أعداء الله، ومراغمتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى

وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾. وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾.

قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فأولئك ما أوهم جهنم وساءت مصيراً﴾. وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه، وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر، وفي الآية دليل على أن كل من توفي فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق والأجل والعمل، وذلك مأخوذاً من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك لم يكن متوفياً.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحلّه.

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه «ولا يتهدون سبيلاً».

فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً﴾ و«عسى» ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالشواهد لمن عمل بعض الأعمال فائدة:

وهو أنه قد لا يوفيه حق توفيقه، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً فلا يستحق ذلك الثواب. والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم وأولادهم وأمورهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام والجهاد العظيم والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم، مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل من فعل فعلهم، حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله﴾ أي: قاصداً ربه ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصراً لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد، ثم يدركه الموت، يقتل أو غيره، فقد وقع أجره على الله. أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمنان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله، أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصاً التائبين المنيبين إلى ربهم.



صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

﴿١٠٣﴾ ﴿فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لغوائه. منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والثناء عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يقرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والاكتثار منه

لو صلوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين وانفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، ويكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الجريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم ولهذا قال تعالى: ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم إن الله أعد للکافرين عذاباً مهيناً﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حربه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم حيثما تقفوه، وبأخذوهم ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم.

فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصابحتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم قسر ذلك بقوله: ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فإذا سجدوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجرتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعنى فيها عن كثير من الأفعال المبطله في غيرها، وما ذلك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهتم طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزّل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً * يخبر تعالى، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظاً في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق، ومشملاً أيضاً على الحق فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وقوله: ﴿فإذا اطمانتم فاقموا الصلاة﴾ أي: إذا امنتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فاقموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهراً وباطناً، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

وقوله: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وقوله: ﴿على المؤمنين﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

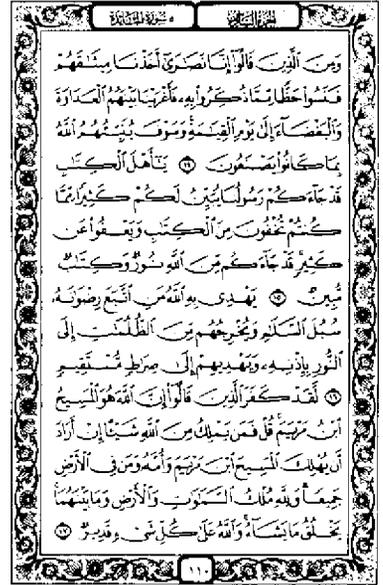
كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

﴿١٠٤﴾ ﴿ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تملون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾ أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوك من الكفار، أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء. بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم. ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساوتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالى عليه الألام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يبدل مرة، ويبدل عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بشوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وأمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسيحان من فاورت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

﴿١٠٥﴾ ﴿إننا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً



من أعظم مقويات القلب.

ومنها: أن الذكر لله تعالى مع الصبر والشبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾. فأمر بالإكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿فإذا اطمانتم فاقموا الصلاة﴾ أي: إذا امنتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فاقموا صلاتكم على الوجه الأكمل، ظاهراً وباطناً، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ أي: مفروضاً في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

وقوله: ﴿على المؤمنين﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفریطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرام والخيبة والحسران؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهي من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتييت، فإن لذته تنقضني، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمْعَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والسندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعييب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء بالجناية، والسعي في ذلك لرسول ﷺ، ليفعل ما يتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنائيات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمائرهم، ولهذا تورعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون^(٥) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم وينفعهم؟ وَمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فَمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٦) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(٧) العلم والعدل، لقوله: ﴿بِمَا أَرَأَى اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلخَائِثِينَ خَصِيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الختابة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال [كما حفظه عن الضلال في الأعمال] (١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: **﴿وما يضلون إلا أنفسهم﴾** لكون ذلك لكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم (٢) إلا الخيبة والحرام والإثم والخسران. وهذه (٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: **﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾** أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: **﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾** **﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾**.

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعدى وصوله على الأولين والآخرين،

له ويوفقه للتوبة. وعند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

ثم قال: **﴿ومن يكسب خطيئة﴾** أي: ذنباً كبيراً **﴿أو إثماً﴾** ما دون ذلك. **﴿ثم يرم به﴾** أن يتهم بذنبه **﴿يريشاً﴾** من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. **﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾** أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بيناً، وهذا يدل على أن ذلك من كباير الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة والإثم، ثم رمي من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي تسأل الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر منته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾**. وذلك أن هذه الآيات الكريمة قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموا بيت من هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرء صاحبهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وجدته السرقة ببيته، وهو البريء. فهم رسول الله ﷺ أن يبرء صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمى ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للضوابط المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعى في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: **﴿ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه﴾** وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء، مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسخين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسخين: وهذا.

والرسول ﴿ يفهم منها أن ما لم يتنازعاوا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿ ١١٧ - ١٢١ ﴾ ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنساناً وإن يدعون إلا شيطانا مريداً ﴾ لعنه الله وقال لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرتهم فليستكن آذان الأنعام ولأمرتهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أولئك مأواهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً ﴿

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنساناً، أي: أوثاناً، وأصناماً، مسميات بأسماء الإنان، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بذلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا تترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها عن يريدها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفتدة، فكيف يعبد من هذا وصفه، ويترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والافراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب يعدله وحكمته، وقد استدلت بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾.

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرن إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله



مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ ونصله جهنم ﴾ أي: نعبده فيها عذاباً عظيماً. ﴿ ومساءت مصيراً ﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدر في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

(١) في ب: المترتب.

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من تولىهم عن ربهم وفاطرهم^(٣)، وتولىهم لعدوهم المرید لهم الشر من كل وجه، فخرسوا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسِرَانًا مُبِينًا﴾ وأي: خسار أبين وأعظم من خسار دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها!! فحصل له الشقاء الأبدى، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولى مولاة وآثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قدير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يَعْدَهُمْ وَيُمْنِيهِمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾. فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُكُمْ بِأَيُّهَا﴾ الآية. ويخوفهم عند إظهار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسبوا عن فعل الخير، وكذلك يمنيهم الأمانى الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، أولئك ما أوامهم جهنم^(٤) أي: من انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا، وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية. وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ؟﴾ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وجرمكم بالله الغرور^(٥).

وقوله: ﴿وَلَا مَرْغَمَ فَلْيَبِئْتَكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنبه ببعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿وَلَا مَرْغَمَ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليح للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفظورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهن عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، وحيه ومعرفته، فافتروا عليهم الشياطين في هذا الموضع افتراس السبع والذئب للغنم المنفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

ومع ذلك^(٦) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالْحَقِيقَةُ مَا عِبَدُوا غَيْرَ الشَّيْطَانِ، الَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمْ، الَّذِي يَرِيدُ إِهْلَاكَهُمْ، وَيَسْعَى فِي ذَلِكَ بِكُلِّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الْبَعْدِ مِنَ اللَّهِ، لَعْنَةُ اللَّهِ وَأَبْعَدُهُ عَنِ رَحْمَتِهِ، فَكَمَا أَبْعَدَهُ اللَّهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، يَسْعَى فِي إِبْعَادِ الْعِبَادِ عَنِ رَحْمَةِ اللَّهِ. ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاها، وآثر طاعته على طاعة مولاها.

وأقسم في موضع آخر لغيوبتهم ﴿لَأَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلا عبادك منهم المخلصين. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم^(٧)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا ضَلَّ اللَّهُ سَبِيلَ الْعَمَلِ﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿وَلَا مَنِيهِمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأمنيهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مِمَّنْ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، تلك أمانيتهم^(٨) وكذلك زيننا لكل أمة عملهم^(٩) ﴿قُلْ

(١) في ب: ومع هذا.

(٢) في النسخين: إنهم يتخذهم.

(٣) كذا في ب وفي أ: وفاطركم.

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم .

ومن كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، و [بعض] الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبته، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قبضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة .

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص .

وقوله: ﴿ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه .

﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدينية، ودخل أيضاً كل عامل من إيس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى . ولهذا قال: ﴿من ذكر أو أنثى وهو مؤمن﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان .

فالأعمال بدون الإيمان، كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبني عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به .

﴿فأولئك﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يدخلون

وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقاً، وخبره حقاً كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمناً، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ لكونه لا يغير إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه .

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجزى به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي: ﴿ليس﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب﴾. والأمانى: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها . وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟!

فإن أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيتهم﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى .

وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي: دين كان، لا يفيد شيئاً إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه .

فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿من يعمل سوءاً يجزى به﴾ وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل، لأي: ذنب كان^(١)، من صفات الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزاء، قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي .

والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً . فإذا مات من

قبلاً^(٢) أي: ﴿أمنوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علماً وتصديقاً وإقراراً. ﴿وعملوا الصالحات﴾ الناشئة عن الإيمان .

وهذا يشمل سائر الأمور، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح . كل له من الثواب المرتب على ذلك بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح .

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أدخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وسنة رسوله .

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المأكول والمشرب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغرية، والأصوات الشجية، والتعم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برؤيته، والأسماع بخطابه، الذي ينسبهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، قلله ما أحل ذلك النعيم، وما أعلى ما أتاهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون، وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خالدين فيها أبداً﴾ وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قيلاً .

فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها .

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان .

(٣) زيادة من هامش: ب .

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. ﴿وَأَنْ تَقْرَبُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأخط لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح من لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه، وقد أليه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ لليتامى وغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لغيرها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقْرَبُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ، في حكم النساء المتعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعفاء من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء. ﴿اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تتزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعظوهم حقهم من الميراث

الحنة ﴿الْمُسْتَمْلَةَ عَلَىٰ مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ ولا يظلمون نقيراً ﴿أَي: لَا قَلِيلاً وَلَا كَثِيراً﴾ مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسوله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخلاص خلقه وأتباعهم.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ والحنة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفق بما أمر به وقام بما ابتلى به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالين.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاطِلاً﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعته بجميع السموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الوجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

تعدر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يعن الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سنته﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ ﴿وَلله ما في السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ ﴿وَلله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون الله بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويميزكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالفنقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الخب، والوظء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يفرقا يعن الله كلاً من سنته وكان الله واسعاً حكيماً﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير ﴿ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حفه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والإنصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء مواعنه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضى لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فيبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والافتناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حينئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يحسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جسد، أو غير ذلك. ﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظور. أو تحسنوا بفعل

الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، وأولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً، ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه.

ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومنّ عليهم بلطفه وهدهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين **«الغني الحميد»**!! فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على

تنفيذه، وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص.

﴿١٣٣ - ١٣٤﴾ **﴿إِنْ يَشَاءُ**

يذهبكم أيها الناس ويأت بأخريين وكان الله على ذلك قديراً * من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً﴾ أي:

هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشيئة النافذة فيكم، **﴿إِنْ يَشَاءُ يذهبكم أيها الناس ويأت بأخريين﴾** غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعابهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهل ويملي ولا يهمل.

ثم أخبر أن من كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تدرك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: **﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾**.

﴿١٣٥﴾ **﴿ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَىٰ بَيْنَمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ تَلَوُوا أَوْ تَعَرَّضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾**.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا **﴿قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾**. والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَدْعُوا بِهِ قَوْلًا فَقَالَ بِعَدُوِّيكُمْ وَأَقْرَابِي وَأَزْوَاجَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِكُمْ لِيُذَكَّرُوا بِالذِّكْرِ الْأَكْبَرِ الَّذِي أَتَىٰ بِالنَّبِيِّينَ أَن يَقُولُوا سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣٦﴾

أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

والقسط في حقوق الأدميين، أن تؤدي جميع الحقوق التي عليك^(١)، كما تطلب حقوقك. فتؤدي النفقات الواجبة، والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط القسط في المقالات والقائلين، فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو ميله لأحدهما، بل يجعل وجهته العدل بينهما، ومن القسط أداء الشهادة التي عندك على أي: وجه كان، حتى على الأحياب بل على النفس، ولهذا قال: **﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾**، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما^(٢) أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير بزعمكم رحمة له، بل شهدوا بالحق، على من كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب عينيه،

(١) في النسختين: الذي عليك.

يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿١٣٦﴾ . وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم!!؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها، لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض، ثم قال:

﴿١٣٧﴾ ﴿١٣٧﴾ إن الذين آمنوا ثم كفروا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴿١٣٧﴾ أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وأمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإياه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة، لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره، يكون عقوبة وطبعاً، لا يزول كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴿١٣٧﴾ . ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفراً، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة. وإذا كان هذا الحكم في الكفر، فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه، ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

﴿١٣٨ - ١٣٩﴾ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٨﴾ بئس المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتنون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴿١٣٨﴾ البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد، كما في هذه الآية. يقول تعالى: ﴿بئس المنافقين﴾ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأفبح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار ومواليتهم ونصرتهم، وتركهم لموالات المؤمنين، فأبي شيء حملهم على ذلك؟ أيتنون عندهم العزة؟

وهذا هو الواقع من أحوال

خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد للذي يلوي أو يعرض. ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين تركوا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

﴿١٣٦﴾ ﴿١٣٦﴾ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبله ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿١٣٦﴾ اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى من لم يدخل في الشيء ولم يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمراً له بالدخول فيه، وذلك كأم من ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزلنا مصدقاً لما معكم﴾ الآية.

وإما أن يوجه إلى من دخل في الشيء، فهذا يكون أمره ليصحح ما وجدته ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.

ويقتضي أيضاً الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجع عليه سلف الأمة.

ثم الاستمرار على ذلك والشيء عليه إلى الممات كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ وأمر هنا بالإيمان به ورسوله، وبالقرآن وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن بهذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿ومن



ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه عن إرادة القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله: ﴿فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾ أي: فلا تتبعوا شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمن سلم من هوى نفسه، وفق للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهي عن ما يصاد ذلك، وهو لي اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها، وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا، من اللي، لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أو تعرضوا﴾ أي: تركوا القسط المنوط بكم، كترك الشاهد لشهادته وترك الحاكم لحكمه، الذي يجب عليه القيام به.

﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي: محيط بما فعلتم، يعلم أعمالكم



﴿تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أذرتنا وحذرتنا منها، وأخبرتنا بما فيها من المفاصد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل لله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ **﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً﴾** إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله

المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً * يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب.

فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به

ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من

من الله عليهم بالتوبة من السيئات. **﴿وأصلحوا﴾** له الظواهر والبواطن **﴿واعتصموا بالله﴾** والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم.

﴿وأخلصوا دينهم﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان **﴿الله﴾**.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات **﴿فأولئك مع المؤمنين﴾** أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة. **﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾** لا يعلم كنهه

متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل،

﴿يراؤون الناس﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراءاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فلهذا

﴿لا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن مملء قلبه بحمجة الله وعظمته.

﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ أي: مترددين بين

فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: **﴿ومن**

يضلل الله فلن تجد له سبيلاً﴾ أي: لن تجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه اتغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتبنيها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على

هذين الأمرين، وليختار أيهما أولى به، وبالله ^(١) المستعان.

﴿١٤٤﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون**

المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهي عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن

بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء

ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً * يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله

ولا يعلمه ولا يبديه لعباده، والخال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. أي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان!!؟

ويدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين العصية، وريأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة

ما ذكره الله في قوله: **﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قبل أرجعوا وراءكم**

فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم **﴿إذا قاموا إلى الصلاة﴾** - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، **﴿قاموا كسالى﴾**

إليه، فلهذا قال: ﴿فإن الله كان عفواً قديراً﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحوالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله، لأن ذلك من تمام توليه، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله كما قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات. وكذلك مَنْ كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل الطمع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل أجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً﴾ إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تحفوه عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً * يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: يبغض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالثتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يبغضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إلا من ظلم﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى^(١) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى:

﴿فمن عفا وأصلح أجره على الله﴾. وكان الله سميعاً عليماً * ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يبغض ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عليم﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إن تبدوا خيراً أو تحفوه﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أو تعفوا عن سوء﴾ أي: عمن ساءكم في أيدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل. فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله

إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وأصلحوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الخرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافي كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال:

﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لأن هذه القاعدة الشرعية - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائنين في الأعمال جزيل الثواب واسع الإحسان. ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنتم إليه، فأبي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

(١) في ب: يرتب.

(٢) في ب: ويشكي.

عياناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، وقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وإدعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغني. وبأخذهم السحت والربا مع نبي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحاكاة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما حمله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقيح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينفم باطلهم، وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا

وإن الذين اختلّفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً * بل رقعته الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الرّبا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مديبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

والذين آمنوا بالله ورسله وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿ولم يفرقوا بين أهدى من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أولئك سوف يؤتهم أجورهم﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ينظر السينات ويقبل الحسنات.

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وكفرهم وقولهم على مريم هبتاً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم



عنه ، فمتنوعا المحتاجين ممن يبايعونه عن العدل ، فعاقبهم الله من جنس فعلهم ، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا يصددها حلها ، لكونها طيبة ، وأما التحريم الذي على هذه الأمة ، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم وديناهم .

وقوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ . يحتمل أن الضمير هنا في قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعود إلى أهل الكتاب ، فيكون على هذا كل كتابي يحضره الموت ، ويعاين الأمر حقيقة ، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام ، ولكنه إيمان لا ينفع ، إيمان اضطرار ، فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد ، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم ، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم؟! .

ويحتمل أن الضمير في قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام ، فيكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح ، وذلك يكون عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار .

فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة . يقتل الدجال ، ويضع الجزية ، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا ، يشهد عليهم بأعمالهم ، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟ .

وحينئذ لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه ، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ ، علمنا بذلك ، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه ، وأنه لا يشهد إلا بالحق ، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق ، وما عداه فهو ضلال وباطل .

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيرا من الطيبات التي كانت حلالا عليهم وهذا تحريم عقوبة ، بسبب ظلمهم واعتدائهم ، وصددهم الناس عن سبيل الله ، ومنعهم إياهم من الهدى ، وبأخذهم الربا وقد نهاوا

بها ، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها ، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ .

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة ، لم يسطها في هذا الموضع ، بل أشار إليها ، وأحال على مواضعها ، وقد بسطها في غير هذا الموضع في المحل اللائق بسطها .

ولكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما

لما ذكر معانيب أهل الكتاب ، ذكر المدحوحين منهم ، فقال : ﴿ لكن الراسخون في العلم ﴾ أي : الذين ثبت العلم في قلوبهم ، ورسخ الإيقان في أفئدتهم ، فأنتم لهم الإيمان التام العام ﴿ بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ .

وأثمر لهم الأعمال الصالحة ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، اللذين هما أفضل الأعمال ، وقد اشتملنا على الإخلاص للمعبود ، والإحسان إلى العبيد . وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد ورجوا الوعد .

﴿ أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾ لأنهم جمعوا بين العلم والإيمان ، والعمل الصالح ، والإيمان بالكتب والرسل السابقة واللاحقة .

﴿ ١٦٣ - ١٦٥ ﴾ ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾ . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله من الشرع العظيم والأخبار الصادقة ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وفي هذا عدة فوائد :

العدد الكثير والجسم الغفير ، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد . ومنها : أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه ، وأن بعضهم يصدق بعضاً ، ويوافق بعضهم بعضاً .

ومنها : أنه من جنس هؤلاء الرسل ، فليعتبره المعتبر بإخوانه المرسلين ، فدعوته دعوتهم ؛ وأخلاقهم متفقة ؛ ومصدرهم واحد ؛ وغايتهم واحدة ، فلم يقرنه بالجهوليين ؛ ولا بالكذابين ، ولا بالملوك الظالمين .

ومنها : أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم ، من التنويه بهم ، والشناء الصادق عليهم ، وشرح أحوالهم ، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم ، ومحبة لهم ، واقتداءً بهديهم ، واستئناساً بسنتهم ، ومعرفة بحقوقهم ، ويكون ذلك مصداقاً لقوله : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ . ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ . ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ . ﴿ سلام على آل ياسين ، إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

فكل محسن له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه . والرسل - خصوصاً هؤلاء المسمون - في المرتبة العليا من الإحسان .

ولما ذكر اشتراكهم بوحية ، ذكر تخصيص بعضهم ، فذكر أنه أتى داود الزبور ، وهو الكتاب المعروف ، المزبور

منها : أن محمداً ﷺ ليس يلدع من الرسل ، بل أرسل الله قلبه من المرسلين

فنفخ في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعبسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عبسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، وتهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أهدهم عبسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبجهم الله .

فأمرهم أن ينتهوا، وأخير أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالآلهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس ﴿أن يكون له ولد﴾ لأن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيحشرهم إليه جميعاً * فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فبئس عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾.

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عبسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فزهدهم عن الاستنكاف، وتنزيههم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: عبسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عبسى ابن مريم رسول الله وكلمته أنقاهما إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كتيلاً﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعبسى عليه السلام، ورفع عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التخصيص والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عبسى عليه السلام نصّ على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عبسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثوبات.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ﴿أنقاهما إلى مريم﴾ أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عبسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة الشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمثلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجئته نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم بعمهون، وفي كفرهم بترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصرط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة - وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغى والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أديانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن الله ما في السماوات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرّمهم من فضله، وخلي بينهم وبين أنفسهم، فلم يبتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

﴿١٧٦﴾ ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلالة بدليل قوله: ﴿قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إن امرؤ هلك ليس له ولد﴾ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فإن كانتا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان﴾ مما ترك، وإن كانتا إخوة رجالاً ونساءً. أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فيسقط فرض الإناث ويعصهن إخوتهن.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي:

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سبرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وفي قوله: ﴿من ربكم﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربوية الدينية والدينية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فأما الذين آمنوا بالله﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿واعتصموا به﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فسيدخلهم في رحمة منه وفضل﴾ أي: فسيتمدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو التقص بعينه، وهو عمل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿ومن

عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿فيوفهم أجورهم﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿ويزيدهم من فضله﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يحظر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكّل والمشارب، والمناكح، والمناظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فيعذبهم عذاباً أليماً﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تغل عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ فأما الذين آمنوا بالله



أي: لا يجعلكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يجمل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الأدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي يأتيها صاحبها، ويخرج. **﴿والعدوان﴾** وهو التعدي على الخلق في دمايهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على حماره، فاحذروا المحارم لتلاجل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: **﴿إلا ما يتلى عليكم﴾**. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا بين.

فأخبر أنه حرم **﴿الميتة﴾** والمراد

﴿ولا القلاند﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدي، وهو الهدي الذي يقتل له قلاند أو عري، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحللاً للناس على الاقتداء، وتعليماً لهم للسنة، وليعرف أنه هدي فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدي من السنن والشعائر السنوية.

﴿ولا أمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له **﴿يبغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾** أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرة والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تسيئوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصصة بقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾** فالشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صدق من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾**.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: **﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾** أي: إذا حللتم من الإحرام بالخيخ والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرمشكم شنان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾

وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المفيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحلوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتدأ الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: **﴿ولا الهدي ولا القلاند﴾** أي: ولا تحلوا الهدي الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحمله ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفورٌ رحيمٌ.

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذلاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ورسوله.

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فمن اضطر﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: ﴿إلا ما ذكيتم﴾ راجع لهذه المسائل، من منخفة، وموقودة، ومتردية، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبا ن السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكاهها وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة] (١).

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قِداح ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا همَّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القِداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القِدحين فيعمل به.

فحرّمه (٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبههه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿٣﴾ ﴿اليوم يسر الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها، فتضر بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسماك، فإنه حلال.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿ولحم الخنزير﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصراني يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يقيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

﴿والمنخفة﴾ أي: الميتة بخنق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت.

﴿والموقودة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

﴿والشردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

﴿والنطيحة﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

﴿وما أكل السبع﴾ من ذئب أو أسد أو نمرة، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

﴿٥﴾ ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسببون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالخبث والخبثاء ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أيها المسلمون ﴿حل لهم﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿و﴾ أحل لكم ﴿المحصنات﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿من المؤمنات﴾ والحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿من الجوارح﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يباح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم ^(١)].

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلًا، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يباح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾

السابقة، في قوله: ﴿حرمتم عليكم الميتة﴾ ﴿في غمصة﴾ أي: جماعة ﴿غير متجانف﴾ أي: مائل ﴿لإثم﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقم به بنيت من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ من الأطعمة؟ ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الخبث والخبثاء التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبثاء منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبث﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يباحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿من فتياتكم المؤمنات﴾ وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يتبن لقوله تعالى: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ الآية.

وقوله: ﴿إذا أتيتموهن أجورهن﴾ أي: أبحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتموهن مهورهن، فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له. وأمر بإيئائها إذا كانت رشيدة تصلح للإتياء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها أو وليها أو غيرهما. ﴿محصنين غير مسافحين﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غير مسافحين﴾ أي: زاتين مع كل أحد ﴿ولا متخذين أحيان﴾. وهو: الزنا مع العشيقات لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه ومعه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة، وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ أي: الذين

خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

﴿٦٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله.

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ أي: بقصدتها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب. الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من متابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحية والذقن طولاً. ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضضة والاستنشق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه.



لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إصصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفى بظاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين وإلى «المع» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعية، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح



الخفين، على قراءة الجر في «وأرجلكم».

وتكون كل من القراءتين، محمولة على معنى، فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل مسحاً - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية.

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة الأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن يتوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المنى بقطعة أو مناماً، أو جامع ولو لم يتزل.

الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بدلاً، فإنه لا غسل عليه، لأنه لم يتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم. السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول الضرر به، وبأبقيها يميزه العدم للماء ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السبيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدلالهما من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به^(١)، لقوله تعالى: «أو جاء أحد منكم من الغائط»

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم

لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء. الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات، مقدم على التيمم، أي: يكون طهوراً، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: «فلم تجدوا ماء».

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: «فتيمموا» أي: اقصدا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره. فيكون على هذا، قوله: «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه»

إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشاداً للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيباً بل خبيثاً.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: «بوجوهكم» شامل لجميع الوجه وأنه يعممه^(٢) بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

(٣) زيادة من هاشم: ب.

(٢) في ب: يعمه.

(١) كذا في ب، وفي أ: فيه.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيّد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء]^(١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي: شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر المسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لظهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحنس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿٧٦﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه.

﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذ علىكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويجرّسون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنظروني عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، نعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴿٩﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا ﴿بما آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بـ ﴿قوامين﴾ بالآية، بأن تكونوا تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وآجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴿١١﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف اليعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به ويكتبه ورسله اليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعبادتها وعن عواقبها، وبالآجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب نصاحبه.

﴿١١﴾ يا أيها الذين آمنوا اذكروا

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فانهم الأعداء قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر و منافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويشقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

﴿١٢٦ - ١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولأدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴿يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً يدعوهم.

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لاستحقاقها ﴿وآمنتم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعزتموه﴾ أي: عظيمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فإذا قمتم بذلك ﴿لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾. فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فمَنْ كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكانه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فيما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أننا ﴿لعناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً.

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراد الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالنعوة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم.

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة لله ولعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] من يعظهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإبقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة. وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل من اتصف بصفاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به، وأنه لا بد أن يتبل بالخيانة، نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظاً، لأنه هو أعظم الحفظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما



ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿الله﴾ وحده ﴿ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إليها معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يخلق ما يشاء﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم]^(١).

فروع خلقته تعال بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلاً منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

والابن في لغتهم هو الخبيث، ولم يريدوا البتة الحقيقية، فإن هذا ليس

من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله رداً عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم [لكون الله لا يجب إلا من قام بمراضيه]^(٢).

﴿بل أنتم بشر من خلق﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿بغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي: فأبى: شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فترة من الرسل﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حججهم، لئلا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾. يبشر بالثواب العاجل والأجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والأجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يشيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠-٢٦﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴿إلى آخر القصة^(٣)﴾. لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومساكنهم، وهي بيت المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾

بقلوبكم وأستكم. فإن ذكرها داع إلى محبة تعالٍ ومنشط على العبادة، ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون، ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتمتكون من إقامة دينكم.

﴿وآتاكم﴾ من النعم الدينية والدينية ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أكرمهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدينية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي: المطهرة ﴿التي كتب الله لكم﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿ولا تردنوا﴾ أي: ترجعوا ﴿على أدياركم، فتنقلبوا خاسرين﴾ قد

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

